14



جوهرة

سجن المستحيل

علاء الدين طعيمة

دار الدعوة



جوهـرة

سجن المستحيل

وفى هذه الأثناء أفاق حارس الزنزانة وأخذ يصرخ ونادى زملاءه، حتى أخرجوه وانتشر بين قوات القلعة خبر هروب الشيخ السجين، ومعه الغلام العربى مؤمن.

وعلى الفور رفعت حالة الاستعداد، وفتحت أبواب القلعة وانتشر الجنود خارجها يبحثون عنهما..

دار الدعوة
٢ شارع منشا - محرم بك - الإسكندرية
تليفاكس: ٣٩٠١٩١٤ – ٣٩٠٧٩٩٨ / ٠٣

سلسلة

مغامرات عجيبة جداً ..

14

جــوهــرة

سجنُ المستحيل

الطبعة الثالثة

١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠٠ م

رقم الإيداع القانونى

٩٨/١٤٩٣٦

الترقيم الدولى : 977-253-195-x

تحذير

لا يجوز تحويل هذه المغامرات إلى عمل سينمائى أو تليفزيونى أو إذاعى أو مسرحى أو شرائط فيديو إلا بالاتفاق والتعاقد مع الناشر .

دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع

المركز الرئيسى : ٢ ش منشا ـ محرم بك ـ الاسكندرية

☎ ٤٩٠١٩١٤ ـ ٤٩٠٧٩٩٨ ـ فاكس ٥٩٥١٦٩٥

جوهرة

سجن المستحيل

تاليف / علاء الدين طعيمة

رسوم / يسري حسن

الإشراف العام / أحمد خالد شكري



بسم الله الرحمن الرحيم

كان مؤمن يسير في هدوء يبحث عن جوهرته الجديدة ليكمل بها تاجه الأثريُّ ولكنَّ الرياح .. أتت بما لا تَشْتَهي السُّفُن، في كل رحلة للبحث لابد من مغامرة تعترض طريق مؤمن .. ولَكِنْ لابد من أسباب تأخذه للمغامرة ولابد من مقوِّمَاتٍ للعمل، أما رحلتنا هذه، لم تكد تبدأ إلا وحدثت مواجهة شديدة وقاسية مع الطُّغَاة ليجد مؤمن نفسه داخل أعْمَاق سِجْنٍ عَتِيد، فكيف بدأت الحكاية؟ يحكي لنا مُؤْمِن من داخل الزِنْزَانة وهو يُحَادِثُ زميله في السجن كيف كان ذلك؟ فيقول :

- وبعدما هبط اللَّيْل كَانَت سفينتنا قد قَاربت الشَّاطئ واسْتَعَدَّ النَّاسُ للنزول .. ولكن فيما يبدو أن البلد كانت في تلك اللحظة تَمُوجُ بثورة أو ما شابه ذلك.

- أعرف البقية .. نزلت من السَّفينة تنظر حولك تريد مُرْشداً .. فوجدت جُنُوداً غِلاظاً يقبضون عليك ثم أَلْقُوك هنا في زنزانتي .. فمرحباً بك أنيساً لي في وَحْدَتي ..

- ولكنْ .. ولكنْ .. أنا غَرِيب وضَيْفٌ عليْكُم .. كيف أُعَامل مثل هذه المعاملة ثم أُلْقي في السجن دونما ذنب ولا جريمة ؟

- هاهاها .. أتسألني أنا ؟ .. يا ولدي .. أنا في هذه

الزنزانة لم أشاهد نور السَّمَاء منذ ما يُقَارب رُبْع قَرن من الزمان .. لقد دخلتها وأنا في رَيْعَان الشَّبَاب .. وها أنت تراني الآن .. شيخ هرِم أكل منّي الزمان وتحكَّمت فِي الأيَّام !.

- يا إلهي - يا ربي - ماذا تقول ؟ .. هل هذا مصيري أيضاً ؟ .. غير مُمكن !!

- في البداية كنت أقول مثلما تقول .. بل أنت تبدو أكثر منّي ثباتاً وقوَّة !! .. وقد يكون ذلك من أثر دهشتك كغريب لا تعلم عنَّا الكثير ولكن لا أعتقد أن صَبْرك سيطول .. بعد أيام ستصرخ مثلما كنت أَصْرُخ وستضرب الجدران برأسك وتقول وأنت تبكي « أنا برئ .. أنا مظلوم .. لم أفعل شيئاً حتَّى

أُسْجَن . . . أَخْرِجُوني . . أَخْرِجُوني . . » ثم بعد ذلك . . . . . .

- بعد ذلك ؟ . .وهل خَبَّأ القَدَرُ ليَ شيئاً بعد ذلك ؟

- ها ها . . بعد ذلك . . تَسْتَسْلِم للمَوت .

- الموت ؟ !!

- طبعاً الموت . . . هل تسمي هذه حياة ؟ . . في البدء كنت لا أطيق هذا السقف المنخفض الذي لا يُتيح لي الفُرْصَة لأُقِيم ظَهْرِي . . ثم - مع الوقت - أَخَذَني شعور بأنني ألقى جزائي في قَبْري الذي سأنتقل منه إلى الآخِرة حيث أَلْقَى الله (عزَّ وجل) .

- سيدي . . معذرة . . إن لأمرك عجباً . . ولكني - رغم ذلك - أسألك عن مصيري أنا .

- مصيرك ؟ .. يا حَسْرَةَ عليك أيُّها الغُلاَم .. أعتقد أن حياتك ستنتهي عند ذلك الحد .. فبعدما كنت تملأ الدنيا بصوتك وتَطْوِيها جرياً برجليك .. وتدق في كل شبر منها علامة حُب أو راية دين أو نبراساً ينير لمن بعدك - ستخمد الأنْفَاس هُنا ... سَتَرسُو السُّفُن بلا عَوْدَةَ سيجف الماء هُنَا .. ستفقد كُل شئ .. حتَّى المَوْت ..

- يا إلهي .. أنهايتي تكون كذلك ؟ ! ماذا أفعل ؟

- لا تفعل أي شئ .. سوى أن تحدث دائماً .. فأنا الليلة سعيد حقًّاً كنت أظن أن لساني نَسِي الكَلام ولكنِّي فِيما يَبْدُو مازلت رغم كل السنون أراني قادراً على الكلام والحوار.



- سيدي .. أنت تتحدث ببساطة شديدة .. وكأنَّ العُمْرَ رخيصٌ .. كَيْفَ تَيْأَس؟ سأنادي الحرس لابد أن يحققوا معي ..

قام مؤمن واندفع إلى الباب الخشبيّ العتيد يدق عليه بكلْتَا يديه وهو يَصيح :

أيُّها الحُرَّاس .. أُرِيد أنْ أُقَابل الحَاكِم .. أنا مظلوم.. أنا لم أفْعَل أي شئ .. أنا زائر مُسَالم .. أخْرِجُونِي أخرِجُونِي .

- يا ولدي .. يا ولدي .. ألم أقُل لك ؟ .. هل أجابك أحد؟.. هل ارتحت الآن ؟.. والله لو فعلت ذلك آلاف المرات ما أصْغَت لك أُذُن ولا رَقّ لك قَلْبٌ ولن تجد سوى الصَّمْت.. ها ها .. الصَّمْت ..

الصَّمْت !!!

- آه ... يا إلهي .. هل انْتَهت حَيَاتي هُنَا ؟.. لا أَعْتَقد .. إِنّ ظَنّي باللّه غير ذلك يا سيدي وهو دائماً عند ظن العَبْدِ به .. قَلْبي يتمزق من السجن ولكني لم ييأس ظني من رَحْمَة اللّه أبداً .

- اسمع يا ولدي .. عليك الآن بالنَّوم .. ثم وعندما تجد في صدرك قوَّة قُم .. فهنا لا نعرف الصباح من المساء ولا الليل من النهار .

- لا .. لم يحن الفجر بعد يا سيدي .. أنا متأكد .

- كيف عرفت ونحن في أعماق السجن كما ترى ولا يصل لنا سوى ضوء الفانوس الموضوع في الممر والذي لم ينطفئ أبداً منذ ساعة دخولي هذه

الزِنْزَانة ؟

- عرفْت بِقَلْبي .. أنا أُحَافظ على الصَلَوَات الخَمْس كُلَّ يَوْم .. فإذا حَانَ مِيعَادُ الصلاة ولم أسمع المؤذن ولم أرى السَّمَاء، فإن جَسَدي يطلب الصلاة مني كما عوَّدته عليها.

- بارك الله فيك يا ولدي - ليتني كنت مثلك.. أنا.. أنا أيضاً أصلي .. ولكن بشكل غير منتظم .. أصلي لله دائماً يا ولدي .. أحادثه وأصعد إليه بقلبي ولكنّي فقدت الزمن فلا ليلٌ لي ولا نهار ، ولا شمس ولا قمر .. نم يا ولدي نم .. وعندما تقوم لنا حديث جديد .. لا تطيل النوم .. فأنا في شوق شديد للكلام .. آه الكَلاَم .. الكَلاَم ..

ورغم ما يَشْعُر به من ظُلْم إلا أنَّه كان مُجْهَداً ، والجَسد يطلب النَّوْم في أيِّ مَكَانٍ وأيِّ ظُروف ، لذا نام مُؤمِن من التَعَب .. كَمَا أوْحَى إلى زَمِيل السِّجن فغطًا في نَوْمٍ عَمِيق - ومَرَّ وقت طويل - ولم يفق مُؤمن إلا وصَوْت الباب يُفْتَح .. ففتح عينيه ليجد الحارس المُدَجَّج بالسِّلاح يَضَع لهما الطَعَام .. فقفز مؤمن وأمسك في رقبة الجندي ..

- اسمع أنا لست من بلادكم .. أنا لا ذَنْب لي فيما كان يحدث عندكم .. أريد الخروج .

- ابتعد يا حشرة .. ابتعد عني وإلا ذهبت بك إلى غُرْفَة التَعْذِيب .

أرْجُوك يا سَيِّدي .. أنا زائر أسيح في بلادكم .. لا

ذنب لي .. أريد مقابلة الحاكم .. أرجُوك

- قُلْتُ ابْتَعِد ..

دفع الحَارِسُ مُؤْمن على جسد الشَّيْخ دَفْعة شَدِيدَة، ثُمَّ أغْلَق البَاب، فاسْتَيْقَظ الرَّجُل على الحادثة فأخذ يَفْرِكُ عَيْنَيه ثم قال لمؤمن :

- لو لم تَأكُل .. ستموت ..

- لا أُرِيد الطعام .

- ستَموت .

- لا حول ولا قوة إلا بالله ...

- كن مُؤْمِناً يا ولدي .. آه .. بالمناسبة .. ماذا يكون اسمك يا ولدي ؟

- مؤمن ..



- أهكذا اسمك ؟.. إذن أنت اسمٌ عَلَى مُسمًّى ..
كُل يا ولدي .. حتى تَتَمكَّن من قوّتك .. أنت هنا
في حاجة شديدة لكل لقمة تقيم صُلْبَك وتَشُد بها
عُودك ..

- الحق معك يا سيدي .. آه .. ما اسمك ؟.

- أنا .. الأمير برهان ولي عهد البلاد التي أنا وأنت
في أعماق سجونها الآن ...

- أمير ؟!.. وولي العهد ؟!!

- بل أعتقد بعد مرور كل هذه السنين أنني الآن
السُّلْطَان .. فلابد أن أبي قد مات .. كان شيخاً
عندما أوْدَعُوني في السجن !

- يا إلهي .. ماذا تقول ؟.. هل تمزح أيُّها الرجل ؟..

هل تركت فترة السجن أثرها في مُخك فأصبحت تتخيل أشياء غريبة ؟

- أتُصدق بالله الذي لا إله إلا هو ؟

- أُصدقُ بالله ..

- أقسم بالله يا مؤمن .. أنني كما ذكرت لك .. السلطان برهان .. سُجنت وأنا ولي العهد ..

- لا إله إلا الله .. ولي العهد وتُسجن ؟.. تقول إنّ والدك السُّلطان كان حياً يُرزق ؟..

- إنها الحقيقة يا مؤمن والله يشهد على ما أقول ..

- إذن لماذا سمح السلطان بسجنك ؟.. هل كان قاسياً إلى هذا الحد ؟..

- لم يكن يعرف غير أن ابنه برهان سقط في الشلال

أثناء محاولته صَيْد تِمْساح .

- من الذي قال له ذلك ؟

- عمي ..

- عَمّك ؟!!.. أيُعقل هذا الكلام ؟

- كان يريد أن ينزع المُلك مني بكافة الوسائل .. ولَمّا ضاقت به الحِيَل .. فكّر في هذه المؤامرة كي يخلُو له العَرْش .. وأظن أنه نجح في مُخَطَّطه البَشِع .

- و ... وأين الأصدقاء الأوفياء والأقارب والجنود المخلصون ؟.. أيْن كل هؤلاء ؟...

- ألم أقل لك إنه مُخطِّط بارع ..؟

- ه الحراس في هذا السجن .. ألم يعلم أحدهم بأمرك . فأراد أن ينقذك ؟..

- واحد .. واحد فقط حَاوَل في البداية أنْ يُنْقِذَني ولَكِنَّ اللهَ لم يَشَأ ذلك ومات دُون الوَفَاء شَهِيداً بسَيْفِ عَمِّي الدَّنِس .

- ألم تحاول الهَرب بعد هذه المحاولة ؟

- أحلام .. ليل طويل مليء بالأحلام .. أحلم كل لحظة بالهَرب .. ولكن الأمر لم يتعدَّ الحُلم والأُمْنِية .. كيف السبيل لذلك وأنا لا حول لي ولاقوة .

- شئ غريب حقاً .. بل إنه مُخيف .

- هو ذا الخوف .. الخوف أيضاً يحرمك من التَمَادي في أحْلاَم الهَرب .

- لماذا ؟

- لأن مجرد التفكير في أن الفشل لا يكون عائده الرجوع للزنزانة .. إنَّما القَتْلُ بالسَّيْف يجعلك لا تستطرد حتَّى في الأحلام ..

- عاقبة الهرب الفاشل .. قتل ؟.. آه ..

- دَعْك من هذا الكلام يا مؤمن .. هيا احكِ لي ما الذي أتى بك إلى حظِّك العَسِر ؟

- آه .. إنها حكاية طويلة ..

- جميل .. رائع .. احكِ .. احكِ ..

- يبدو أنك آخر من أحكي له حكايتي يا وليَّ العهد .

- اسمع يا مؤمن - الوقت هُنا سَئيم قاتل .. إنه فقط يمر دُون أن تَشْعُر بغير ثقَله .. هيا لنستهلكه فيما يُسَلِّينا .. قل لي ما حكايتك هذه ؟..

أخذ مؤمن يسرد كالعادة حِكَايَتهُ .. وتَخْتَلِفُ هذه المرَّة في أنَّ الألْفَاظ والعبارات والحوار، مَغْمُوسة بمَرَارة اليَأْسِ والإحْسَاس بالظُلم والقَهْر.. وبِقَدْر ما تعجَّب هو من حكاية برهان، بقدر مادهش برهان من حكايته .

- تأتي من مِصر .. من بلاد النهر من أجل مزاعمك العجيبة هذه ؟.. إنك مُغَامِر شجاع .. ها .. احك لي عن كل جوهرة وكل مغامرة قمت بها ..

- سيدي .. أرجوك يا سيدي .. أرجوك لا تكلفني مالا أطيق.. فأنا لا صبر لي الآن على المسامرة والحكايات .. أنا أريد الخروج من هذا السجن .

- أهكذا بكل بساطة ؟.. تريد الخروج من السجن

الذي لا يعلم أي منا موقعه من الدُّنْيَا .

- ماذا ؟.. ألا تعلم يا سيدي برهان .. أين نحن الآن من مَمْلكتك ؟..

- لا أعلم .. ذات مرة قال لي حارس سِكّير .. أننا في سجن بداخل سجن .. فلما حاولت أن أتبين كلامه .. قال «سِجْن بناه البشر داخل سجن الطبيعة القاسية» ولم أعرف شيئاً بعد ذلك إلا أن نفس الحارس قال لي ذات مرة «إذ أردت العودة للسلطنة فلا أقل من خَمْسَة أيام على الأقدام .

- وأنت .. وأنت يا ولي العَهْد .. ألا تعرف تضاريس وجغرافية المملكة وما حولها من طبيعة ؟..

- أنا لا أثق في كلام هذا الحارس .. أذكر أن الخيول

كـانت تضـرب بنا في طريق وعـر مُسخِيـف وأنا مَعْصُوب العَيْنِين لمدة لا تقل عن سَبْعة أيام .

- معك حق يا سيدي .. فأنا من الميناء إلى هنا مضى عليّ في العربة التي تجرها الخيول أكثر من سبعة أيام .. إذن هل تستطيع معرفة طبيعة المكان الذي نحن فيه الآن ؟..

- الشرق أم الغرب أم الشمال أم الجنوب .. إن مملكتي واسعة ،مترامية الأطراف .

- تذكَّر شيئاً مهماً .. أن الحارس السكير لو كذب في واحدة فقد يكون صادق في الأخرى ..

- كيف ذلك ؟

- ألم يقل إننا في سِجْنِ دَاخل سجن؟ سجن بناه

البشر وسجن الطبيعة القاسية؟ إذن هل تتذكر مكاناً بالقرب من المملكة تعرف فيه قسوة الطبيعة ووعورتها ؟

- يا إلهي .. لا .. لا يمكن أن نكون في هذه البقعة .. إنها قِطْعَة مِنَ المُسْتَحِيل .. إنَّها الجحيم في الأرْضِ يا ولدي.. أيُعْقَل ذلك؟ أيعقل أن نكون الآن فيها؟..

اعتدل مؤمن في جلسته وتنبه لكلام السلطان السَّجِين ثم قال :

- أي مكان تقصد يا سيدي بالله عليك ؟

- آه .. لو فعلوا ذلك .. لو فعلوه ؟.. ياه .. الآن تذكَّرْتُ .. تذكرت بعد كل هذه السنين ..

- ماذا تذكرت سيدي ؟.. قل .. لقد زِدتَني حيرة ..

- بالتأكيد .. نعم .. عندما كُنْت طفلاً .. سمعت من جدتي حكايات عن قَلْعَة المَوت التي بَنَاها أحد الأَجْدَاد في وَادِي المُسْتَحِيل ..

- وَادِي المُسْتَحيل ؟!!!

- نعم يا مؤمن .. لقد بَنَاها جَدِّي الأول في وادي المستحيل حتى يفر إليها إذ هجم الأعْدَاءُ على السَّلْطَنة وعجز عن صَدِّ عُدْوَانهم .. فهو يفر إلى قلعته وهو على يقين أن الأعداء سيفشلون في الوصول إليها .. لما لوادي المستحيل من وعورة وصعوبة يستحيل اختراقها إلا لمن يَعْلَمُون أسْرَار المكان .

- إذن .. إذن نَحْنُ الآن في قَلْعَة جدك بوادي

المستحيل ؟

- أظُنُّ ذَلِكَ ..

- يا ربِّي .. الآن زاد الأمر عائقٌ ثالث .. السِّجْن .. الوَادِي .. والمَوْت إذا فشلنا في الهَرب .

أخذ مؤمن يتناقش والسُّلْطَان النَّسجين حتَّى أدْرَكَهُما التَّعَب .. فَعادا مَرَّة أُخْرَى للنَّوْم وقَامَا بعد ذَلِك على صَوْت الحَارِس يضع لهما الطعام ثم قفل الباب فأقبلا على الطعام بِنَهَم .. ولو أن مُؤْمن كان في ضِيق ما بَعْدَه ضِيق .. فالسِّجن والحبس في مكان واحد مدة طويلة يُولِّد لدى الإنسان شعوراً مريراً يُولِّد اليَأْس .. ولكنَّه دَائِمَاً بحُكْم إيمانه بالله وصِغر سنه وخبراته المتعددة كان يشعر بِقُرب الفَرج .. وبعدما

تَنَاول الطَّعَـام .. صَلَّى مـا عليـه من فـرْض ثُمَّ جلس يَسْتَغْفِر الله، فلما سأله السُّلْطَان عمَّا يَفْعل ؟ قال له :

- قال رسول الله « ﷺ » : [مَنْ لَزِم الاسْتغْفَار .. جعل الله له من كُلِّ هَمٍّ فـرَجـاً ومِنْ كُلِّ ضِـيقٍ مَـخْـرَجـاً ورزقه من حَيْثُ لا يَحْتَسِب] .

وهنا قال له السُّلْطَان :

- اذْكُر يا ولدي قَوْل الله تعالى : ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ .

- صـدق الله العظيم .. إذَنْ يا سـيـدي السُّلْطان .. عَلَيْنَا بالتزام الاسْتِغْفَار لأنَّه يوجب المغفرة والفرج والمخرج والرزق .

- إذن ماذا نفعل ؟

قال مؤمن :

- كان رسول الله « ﷺ » يستغفر الله في اليوم مائة مَرَّة.. وعلينا أيضاً أن نفعل ذلك فعندما نقوم كل يوم من نَوْمِنا وعندما نأوي إلى فراشنا نَسْتَغْفِر الله مائة مرة.. هيا يا سيدي.. هيا نستغفر الله العظيم.

بعد الاسْتِغْفَار قال السلطان :

- ياه.. أول مرة في حياتي أشْعُر بالراحة.. ليتني داومت على الاستغفار أيام السُّجْن الطويلة .

- الحمد لله يا سيدي.. والآن.. كلمني عن المكان الذي نعيش فيه.

- أمازلت تُفَكِّر في الهرب ؟

اعتدل مؤمن ولاحت للسلطان في عيني الغلام مؤمن شرارة الحماس فقال له :

- ألا تَخَافُ من الموت يا مؤمن ؟

- أخاف أن أعيش حياتي ذليلاً في هذه المقبرة.. الموت إذا كان في سبيل الحرية أهون من الحياة في أعماق قبر كئيب ..

- السيف يا ولدي .

- الشرف يا سيدي .

- أراني الآن حائراً .

- لا تخف يا سيدي.. احك لي عن هذا المكان .

- إنَّه مُرعب.. إنه سجن يا ولدي.. أتعرف لو تركونا نخرج وقالوا لنا اهربا سنعجز عن ذلك .

- سنتوكل على الله يا سيدي السلَطان.. سندعوه..

وهو على كل شيء قدير .

- الأمر لله .. اسمع الكلامِ أولاً ثم سأدعك لحيرة

بالغة وليأسٍ شديد .

- لا يأس مع الذكَاء والحكمة .. ألم تقل أن هناك

طريق سري يوصل للأمان؟

- نعم .. ولكنني لا أعرفه .

- قل يا سيدي.. قل وأخبرني.. وكل شيء على

الله.. أنا حتى الآن لم أفكر في وسيلة الهرب .

تنحنح السُلْطَان «بُرْهَان» وأخذ ينظر لمؤمن ملياً

وهو يتذكر ويلعب بأصابعه في لحيته البيضاء وأحَس

مُؤْمن أنَّ شعاع الفانوس الذي يُضئ في الممر جعل

عيني السلطان تضيئان أكثر من قبل، وبعد برهة قال:

- بَنَى جَدِّي قلعته هذه في مكان.. والمكان محصّن من الجهات الأَرْبَعة، فمن الشَّرْق بُحَيْرة تَعُج بالتماسيح التي من كثرتها لا تجد الماء الذي تمرح فيه، ومن الغرب صحراء شاسعة.. مَنْ ينجح في عبورها يقف على حدود السَّلْطنة الشرقية ولكن هذه الصحراء متحركة الرمال.. لا يستطيع فأر صغير أن يسير قفزاً عليها إلا وابتلعته الرِّمَال، ومن الشمال جبل حاد الارتفاع.. صخوره حادة كالأَمْوَاس.. ورغم ذلك فله فُوَّهة بركانية يقذف منها الحِمَم كل شهر مرة.. لذا فالأرض حول الجبل ليست إلا طينة ملتهبة تشوي الوجوه على بُعْد كبير.. ومن الجنوب غابة لم يستطع أياً من بَنِي

البَشَر الاقْتراب مِنْها .. تَعُج بالزَّواحف القاتلة وتمتلئ بطيور جارحة ووحوش مفترسة .. هذا فضلاً عن أن بها نباتات أيضاً مفترسة ..

- نباتات مفترسة ؟!!

- نعم يا ولدي.. حكت لي جدتي أن الحصان الذي كان يملكه جدي.. انطلق وحده في الغابة خوفاً من ثُعْبان.. فالتفَّت حوله سيقان نبات متسلق كالأخطبوط.. فأخذت تعصره عصراً.. حتى انحنى ورق النبات العملاق وأطبق على جثة الحصان .

- يا ربي .. يا ربي.. إنَّها مستحيلة حقاً فكرة الهرب هذه.

- ألم أقُل لك يا ولدي ؟ .. فَضْلاً عن كل ذلك .. إذا

حاولت الهرب فنِسْبَة الفَشل كبيرة وسَيُلْقَى القبض عليك ولن يرحمك أحد .

- يا رب.. يا رب.. ما العمل.. ثم ماذا جنيت أنا حتى أُوَضع في هذا السجن ؟

ولأول مرة يقبع مؤمن في ركن الزنزانة دون أن ينبس ببنْتِ شفة.. وساد صَمْت غريب.. كان كل منهما يُفَكِّر .. أما مُؤْمن فهو يفكِّر في الهرب وأما السلطان فهو يفكر كيف يحمل مؤمن على الكلام لأنه أصبح يَكْره الصمت الذي عاش فيه سنين طويلة.

وضاع يوم آخر في الصمت والحيرة .. وناما .. ثم قاما يتقاذفان الحيرة والتردد :

- يا مؤمن .. إن ما تقوله ضرب من الجنون يا ولدي .

- سنهرب .

- كيف ..؟

- كما قلت لك ..

- مستحيل ..

- المستحيل لا وجود له عندي ..

- سأمنعك ..

- إذن أنت ستحمل ذنبي ..

- أي ذنب ؟ ..

- أن تمنعني من أن أستعيد حريتي ...

- يا ولدي ..

سيدي السلطان ... توكَّل على الله

إلى الغد .. أعطني فُرْصة أفكر فيها .. الأمْر ليس

هَنِئاً كما ترى . .

ومضى يوم آخر ثم عدة أيام والسُّلْطان يفكّر ومؤمن يحاول إقناعه بضرورة الهرب حتى حانت لحظة :

- يا ولدي . . لقد أعطيتني درساً لن أنساه . . أنا لن أنتظر الموت . . ولن أخشاه بعد الآن .

- إذن . . من الآن سنبدأ خُطَّة الهرب . . أنا حتى الآن محتفظ بتوقيت الليل والنهار . . الحارس سيأتي بعد ساعة أو يزيد ليضع لنا طعام العشاء الذي دائماً ننام بعد أن نتناوله . . وأظن أنك تعرف دورك جيداً سيدي السلطان ؟ .

- آه . . لكن قلبي يَزْدَاد نبضاً من الخَوْف . .

- قُل.. بُسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم ، ثم قُل.. اللهم إني أجعلك في نحورهم وأعوذ بك من شرورهم .

مضت فترة من الوَقْت ثم حان ميعاد طعام العشاء.. وسمعا صوت المِفْتَاح في الباب، كان الحارس يحمل الطعام، ثم فتح الباب ودخل فوجد مؤمن يتلوى ويئن من ألم في أمعائه .

- آه .. بطني .. آه .. ألم شديد .. آه .. آه ..

فقال السلطان بُرهان :

- يبدو أن مرضاً ألمَّ به.. افعل شيئاً.. إنه يتألَّم طِيلة اليوم ..

تَرك الحارس سَيْفه على الأرْضِ والمفاتيح وأخذ يُقلّب في مؤمن الذي كان يتأوه من الألم ، فقام برهان وكأنه يساعد الحارس ثم وقف ورفع كلتا يديه لأعلى ثم هوى بهما بشدة على مؤخرة عُنق الحارس فَسَقَط مَغْشّياً عليه على الفَوْر :

- هيا يا سيدي .. علينا بالخروج من الزنزانة .. أسرع ..

وبسرعة وحذر.. خرجا ثم أغلقا الباب على الحارس بعد أن أخذا السَّيْف، وأخذا يجريان إلا أن برهان كان يتألم .. فمفاصله منذ سنين طويلة لم تَكُن تعتاد المشي أو الجري.. لكن الخوف والأمل والحرية أنْسَوه الألم .

وتبعاً للخطة .. كان عليهما ـ حسب ما وصفه برهان عن القلعة ـ أن يصعدا إلى أعلى برج فيها وأن يبتعدا عن الساحة والباب والأسوار وثكنات الجند .. وبسرعة جَريًا يصعدان السُلَّم المُؤدِّي للبُرج .. كان الوَقْت ليلاً إلا من ضوء الفوانيس الزيتيَّة كان الدرج الحجري ضيقاً ملتوياً ولكنهما استطاعا أن يصلا أعلاه ولاح لهما حارس البرج يقف ناظراً نحو الأفق الفسيح .. اقترب منه مؤمن بحذر شديد ، ثم إذا أصبح خلفه مباشرة دفع مقا مة السيف في ظهره ، وصاح به :

- إياك والتَّهَوُّر .. لا تلمس سيفك وارفع ذراعيك لأعلى .

وعلى الفور تقدم السلطان بُرهان ثم انْتَزع السيف من الجُنْدي وكمم فمه ثم قيَّده بمساعدة مؤمن .

وبسرعة تناولا السُلَّم المَصْنُوع من الحبال والذي يستخدمه الحرس، وقاما بإسقاطه، وبمُنْتَهى الحذر صعدا إلى النافذة الحجرية، ومع أن الارتفاع كان مخيفاً، إلا أنهما نجحا في النزول وأصبحا خارج القلعة، وأشار السلطان لمؤمن نحو الغابة .

فقد كانت هي الوجهة التي وقع الاختيار عليها للمرور منها، رغم ما بها من أهْوال وأخطار .

وفي هذه الأثناء أفاق الجندي حارس الزنزانة وأخذ يصرخ وينادي زُملاءه. حتَى أخْرجُوه وانتشرت قوات القلعة خبر هروب السجين الشيخ . ومعه الغلام العربي مؤمن .

وعلى الفور رفعت حالة الاستعدادا، وفُتِحَت أبواب القلعة، وانتشر الجنود خارجها يبحثون عنهما، إلا أنهما في هذه اللحظات قد توغَّلا في الغابة، وشاهدهما أحد جنود، فجرى يبلغ قائده بأنهما دخلا الغابة، فقال القائد :

- الغابة ؟!!.. أحمقان.. ستلتهمها الغابة بوحوشها وزواحفها ونباتاتها.. دعوهما وإذا حالفهما الحظ سيعودان بنفسيهما يسألانا أن نفتح لهما السجن مرة أخرى.. ها ها ها.. هيا نرجع .

وبرغم أنَّ الغابة كانت مُظْلمة إلا أن نباتات بعينها كانت تضيء في الليل، كأنها مصابيح مما دعى مؤمن للدهشة .

كانا يسيران حثيثاً، لا يدريان ما الوجهة التي يسيران إليها.. كل ما كان يعنيهما الابْتِعَاد قدر الإمكان عن القلعة الملعونة ..

تحت أقدامهما نباتات تفترش الأرض وتغطيها فلا يظهر منها شبراً واحداً، وفوقهما أغصان ديدَانية متلاحِمة في شجارٍ مُخِيف، الصَّمْت كان يُغَلِّف الأماكن .. وحار مؤمن، لقد ذكرته هذه الغابة بغابات مغامراته في «الأدغال المتوحشة» ولكن الأخيرة كانت تعج بأصوات طيور وقرود ووحوش، لماذا كان كل هذا الصمت الرهيب ؟!

- سيدي السُّلْطَان .. سيدي .. ما هذا الصَّمْت ؟!!

- إنَّهُ صَمْتٌ مُخِيف يا وَلَدِي .. يكَادُ يقتلني يا

مؤمن.. أنا خائف

- تماسك يا سيدي.. لابد أن هناك سراً ما..

- أي سرٍ ؟...

- أعتقد يا سيدي السلطان أن علينا التوقف هنا ..

- مؤمن .. احترس يا ولدي .. احترس .

وفي هذه الأثناء كان السلطان «نَدْمَان» يعيش في سعادة بالغة بعدما نجح في مخططه، واستطاع أن يسلبُ السُلْطنة من ابن أخيه بُرْهَان بعد أن وضعه في السجْن ومات والده حُزناً عليه، وها هو بين الحَاشِيَة يَضْحَك وهو لا يدري شيئاً عن المملكة والشعب، فكان الناس في ضيق ما بعده ضيق ، ولكن لا يجرؤ أحداً منهم على الاعْتِراض، وإلا سيكون مصيره السجن أو الموت .



وكان أكثر ما يُؤَرِّق مضجع هذا السلطان «نَدْمان» أن الشعب بدأ يتكلم عن سر اخْتِفَاء الأمير برهان .. الناس لم يصدقوا أنه مات في الشلال، ولكن «نَدْمَان» كان إذا سمع بأحد يتفوّه بهذه الكلمات يقطع رأسه.. فكان الناس يتحدثون في الأمر سراً وكانوا يقولون ويزيدون في الكلام من عندهم.. وقالوا إن الأمير برهان قد قُتِل، ولكن كثيراً من الناس كانوا من شدة الظلم والتجويع والفقر وظلم السلطان ندمان، يحلمون كل يوم بِعَوْدَة الأمير «بُرْهان»..

ووصلت للسلطان المُغْتَصب «ندمان» بسرعة أخبار هروب الأمير برهان من السجن فجُنَّ جُنونه وأخذ يصرخ ويجري في أنحاء القصر وقد طعنه الخوف في

صدره طعنة شديدة، فصاح في رئيس الجند :

- فليخرج الجيش كُله .. كل الجنود يحيطون بالسَّلْطَنة .. وأي غريب يريد دخولها يتم القبض عليه ويرسل إلى سجن القلعة.. لا تُدْخِلوا أي غريب إلى حدود السَّلْطَنة. هيا.. نفِّذُوا أوامري..

وإذا عدنا إلى مؤمن فكان في موقف حَرج للغاية ، إذ ان نباتاً من النباتات المتسلقة اعْتَبر مؤمن فريسة لذيذة، فالتفَّت الأغصان اللعينة الخشنة حول الغلام كأنها أذرع أخْطَبُوط عِمْلاق، وأخذت ترفعه من على الأرض تريد أن تَصْعَد به إلى زهرة عملاقة تفتح ورقاتها الثلاث كالفك المُفْتَرس تنتظر ابْتلاع الفريسة أخذ مؤمن يصرخ والسلطان بُرْهَان يتعلَّق به، ولكن

الأغـصــان كـانت قـوية، وقـبـل أن يتـمكن بـرهان من الأغـصــان تمكنت هي منه فـالتـفت حـوله هو الآخـر ورفعته مع مؤمن نحو الزهرة التي وكأنها عرفت أن الفريسة أصبحت فريستين ففغرت فاها أكثر وأكثر، كان الصديقان يصرخان وهما قاب قوسين أو أدنى من فم الزهرة .. ولكن مؤمن استطاع بصعوبة بالغة أن يقبض على السيف ثم انتزعه بصعوبة من غمده وقد أصبحا فوق فم الزهرة بالتمام وهي تستعد للالتهام فطعنها في أوراقها بالسيف فخارت قوتها، فقام مؤمن بضربها من عنقها بالسيف فانهارت قوة الأغصان فصرخ في السلطان برهان :

- تشبث بالأغصان جيداً يا سيدي .. إننا سنسقط.

بعدما ماتت الزهرة، ارتخت الأغصان وانعدمت قبضتها على الفريستين وانهارت نحو الأرض، إلا أنهما أمسكا فيها متلعقا، فاندفعا بشدة بين الأشجار والأكمام المتشابكة، وكان عليهما الاصطدام في آخر الأمر بأيْكَة متشابكة غزيرة الأغصان والورق، ولكنهما في قوة الارتطام وجدا أنفسهما يتوغلان فيها وكأنَّها كهف كبير من الورق الأخضر والأغصان المتشابكة، فتركا الأغْصَان تقذف بهما إلى نهايته، وفوجئا أنهما يقعان في عُش عِمْلاق كعُش العصافير، ولكن البيض لم يكن بيض عصافير بل إنه بيض عملاق :

- مؤمن .. آه .. إن صدري يؤلمني وكتفاي ..

-وأنا أيضاً .. ما هذا .. لقد كانت الزهرة المتوحشة ستلتهمنا .

- بل ستَفْرمُنا .. ألم تر الأسْنَان الشوكيَّة التي تحيط بالأوراق من الداخل ؟.. يا إلهي .

- يا ولدي.. لابد أن نهبط من هذا العُشِّ الأكمة قبل عودة الطائر.. سيظن ولا شك أننا نبغي بالبيض سوءاً وسيقتلنا .

- الحق معك .. ولكن .. سيدي انظر .. يا إلهي .

التَّف الجُنْد حول السَّلْطَنة، وأقامُوا المتاريس، وبوابات التفتيش، وأخذوا يقبضون على كل غريب يريد الدخول، فقبضوا على كثيرمن الناس، وظلموا وطغوا، إلا أن «ندمان» السُّلطان لم يكن لينام، وفقد



شـهيتـه للأكل، وصـرف الراقـصين والمغنيين، وجـاءه تقرير القلعة عن قصـة هروب السلطان برهان، فعرف أن الغابة ستكون طريقه نحو السلطنة . فكان كلما أخذته سنة من النوم يحلم بكوابيس مزعجة، أن وحوش الغابة هاجمت السلطنة وفتكت بالجنود واقتحمت القصر ثم مزَّقت لحمه، فأخذ في الصراخ وطلب النَّجْدة، ويزعج كل من بالقصر فيهرعون إليه ليجدوه مُختبئاً تحت السَّرير يَرْتَعد من الخَوْف، وزادت هذه الظاهرة، حتى لم يبق عند الناس شك في أن خطراً ما يهدد عرش السلطان، وزادت الأقاويل حول عودة الأمير «بُرْهَان»، فأصبح الناس ينتظرون ذلك اليوم بفارغ الصبر، وخصوصاً أن الأنْبَاء - قد

تسربت عن طريق الجنود   تسربت تثبت حقيقة الأقاويل .

كان مؤمن يمسك سيفه شاهراً إياه في وجه طائر يشبه الدّجاجة ولكنّه عملاق كبير .. فيما يبدو أن الطائر كان وديعاً هادئاً ، وزاد الهدوء ، عندما أبدى مؤمن والسلطان السّلاَم وابتعدا عن البيض ، فتقدم الطائر نحو البيض واحتضنه ، ونظر للسُّلطان وتبادلا الابتسامات ، إلا أنه في لحظة واحدة ، حدثت كارثة ، عندما صرخت الدجاجة صرخة فزع وظهر ثُعْبان عملاق .. عملاق لدرجة مذهلة ، وفي ... ضة عين قبض على عُنُق الدجاجة بفكيه الكبيرين وحدث صراع رهيب ، فلم يكن أمام مؤمن إلا أن يرفع السَّيْف

ولكنَّ بُرْهَان قال له :

- ماذا تفعل يا ولدي.. هيا.. هيا نَهْرب بسرعة.:

هيا قبل أن نضيع !!

- سيدي لابد أن نفعل شيئاً .

وقبل أن يشرع مؤمن في عمل أي شيء.. كان الثعبان قد قضم رأس الدجاجة وأخذ يفترسها.. فأسف على حالها، وبسرعة هو والسلطان أخذا يقفزان على الأغصان نحو الأرض فراراً من الوَحْش، حتى وجدا أنفسهما مَرَّة أُخْرى على الأرْض.. فأخذا يجريان ويجريان ويلهثان، ومرًا على أشْجار وأشجار وبرك ومُسْتَنْقَعات، حتَّى وصلا إلى ساحة فسيحة خالية من الأشْجَار ويتوسطها مُسْتَنْقَع قذر.. تعلو

صفحة ماءه طبقة سميكة من العفن الأخضر .

فقال السلطان برهان لمؤمن :

- ولدي.. لقد.. لقد تعبت.. أريد أن أرتاح.. تعالى نجلس .

وأيَّدَه مؤمن في ذلك بعدما أحسَّ بالأمان .

سارا يترنَّحان حتى بقعة عشبية فارتميا عليها وبدون تفكير ذهبا في سبات عميق.. وقامت عاصفة أخذت تعصف بالأشجار وتطاير الورق والأغصان الرفيعة حتى أصبح فوقهما غطاء من العُشْب والورق والأغصان.. وعندما أفاق مؤمن من النَّوم نظر إلى ما فوقهما فصاح بالسلطان برهان، أن يتنبه لذلك، فإذا بالسلطان كان متيقظاً من قبل ويرقب شيئاً غريباً،

فأشار لمؤمن بالسكوت ، وقال له هامساً :

- شش.. هذا الغطاء.. نعمة من الله.. إنه يُخْفِينا .

- يُخْفِينا !!!.. يخفينا من ماذا ؟

- انظر .. انظر هناك .

كانت تقف على الحافة الأخرى للمستنقع بعوضة في حجم الجَمَل تشرب من الماء، ثم تحرَّكت فكاد قلب مؤمن أن يتوقف، ولم يَدُمِ المَوْقف كثيراً، فلقد فردت جناحيها ثم حرَّكتهما فأثارت زوبعة هائلة وأصدرت أزيزاً مُزْعِجاً، فقام مؤمن يرفع الأغصان من عليهما وهو في دهشة شديدة قال:

- أرأيت سيدي مثل هذه الناموسة ؟

.. أول مرة في حياتي أرى مثل هذا الشيء .. كل

شيء هنا عملاق .. ما هذه الغابة الغريبة ؟!

- عجيبة حقاً هذه المُغَامرة.. كل مُغَامراتي يا سيدي مُغَامرات غريبة جداً .

قال السلطان برهان :

- والآن ماذا علينا أنْ نَفعل ؟.. أظن أنه مازال هناك طريق طويل ؟..

- قال مؤمن وقد غمره الأمل في الله :

- بإذن الله ورغم كل الصعوبات سنتقدم وسننجح في الوصول لبُغْيَتنا .

قال السلطان برهان :

- قلبي يخاف .

رد عليه مؤمن محاولاً تشجيعه :

- استعذ بالله إنه على كل شيء قدير .. إن الله «عز وجل» يُحبّ من العبد أن يسعى .. فليس علينا إلا السعي ومحاولة اختراق حاجز المستحيل ..
سيدي .. لا يوجد مستحيل .. المستحيل في العَجْز .

قال السلطان :

- أحس به .. أشعر بالعجز .. أنا ضعيف ياولدي .

قال مؤمن :

- لا .. استعذ بالله .. ادعُ الله وقل .. [اللهم إني أعوذ بك من الهَمّ والحَزَن وأعوذ بك من العَجْز والكَسَل وأعوذ بك من غَلَبة الدَّيْن وقَهْر الرِّجَال] .

نهض مؤمن والسلطان مرة أخرى وتقدما في الغابة العجيبة ، وشاهد مؤمن بعينيه نباتات عملاقة تلتهم حيوانات بأكملها ، وألِفَ مَنْظَر الأشْجَار المتشابكة

المتلاحمة، ولكنّ السُّلْطَان برهان قد أصابه الإعياء وأنهكه التعب .

فقال مؤمن محاولاً تشجيع السلطان :

- سيدي السلطان .. أعتقد أننا قد اقتربنا .

- نعم .. ولكني لا أستطيع السير أكثر من ذلك .

شعر مؤمن أنه لابد من أن يأخذ كل منهما قسطاً من الراحة فقال للسلطان :

- وأنا كذلك قد أصابني التعب .. علينا أن نُقِيم مُعَسْكَراً هذه الليلة ونرتاح ثم نكمل سيرنا في النَّهار ..

وبسرعة أخذ مؤمن يُجَهِّز مكاناً ليرتاحا فيه، وجلسا بعد ذلك يتناولان بعض الثمار التي جمعها

مؤمن من الأشْجَار وهما يتسامران ويحكيان عن الماضي والذُكْرَيات ويحلمان بالمستقبل المشرق السَعيد.

وغلبهما النوم فناما نَوْماً عَميقاً.. ولم يَدْريان كم من الوقت مرَّ عليهما وعندما أفاقا من النَوم لم يكن الليل قد انتهى بعد :

قال السلطان :

- آه .. يا مؤمن ..

رد عليه مؤمن قائلاً :

- سيدي .. أنا يقظ .. هل بقي كثير على النهار ؟

قال السلطان :

لا أدري كم يكون الوقت الآن .. يبدو يا ولدي أننا نمنا ليلتين متتابعتين .. أشعر أنني نمت كثيراً .

قال مؤمن في دهشة :

- وأنا أيضاً ، جسدي يؤلمني من كثرة النوم .. ولكن أيُعقل أن ننام هكذا يومين دون أن نشعر بشيء ؟ !

وفجأة دوت صرخات لها صدى مزعج وقام مؤمن منتفضاً يتحسس المكان في الظلام وقال للسلطان :

- سيدي .. سيدي .. نحن لسنا في نفس المكان .

رد السلطان متسائلاً :

- ماذا تقصد يا مؤمن .. أنا لا أرى شيء .

قال مؤمن :

- نحن في مكان آخر غير الذي نمنا فيه .

قال السلطان :

- أحقاً ما تقول ؟

قال مؤمن :

- نعم يا سيدي .. نعم .. لقد كانت نومتنا في جَوْفِ شَجَرة عِمْلاَقة وتحتنا أوراق من شجر الموْز.. ولكننا الآن في كهف حجري.. نعم إنها حجارة وصخور .

قال السلطان :

- ماذا يعني ذلك ؟

قال مؤمن :

- لا أعرف .. ولكن فيما يبدو أن هُناك من قام بنقلنا من مكاننا إلى هنا .

ودوت الصُرخات بعد ذلك .. فاشتد فزعهما وصاح السُلْطان :

- ما هذا .. ما هذا .. علينا أن نفعل شيئاً يا مُؤْمن ..

قال مؤمن :

- ما العمل يا سيدي.. إن الظَّلاَم دَامِس يا سيدي..

ولكن لابد أن ننطلق .

أمسك مؤمن بيد السلطان وأخذا يسيران في اتجاه لا يعلمانه، والصرخات تتوالى فتوقف السلطان وقال لمؤمن:

- انتظر .. أتعرف .. لقد تذكرت هذا الصَّوْت .

قال مؤمن :

- ماذا يكون بالله عليك ؟

قال السلطان :

- القرود .

قال مؤمن في دهشة :

- القرود ؟!!.. يا إلهي !! القرود ؟!!

ولم يكد ينطق بها مؤمن حتَّى سَمِعَا أصْوات دَبيب شَديد خلفها فأخذا يجريان ولكن الصراخ أخذ يشتد وتبينا أن من يتبعهما ليس واحدا وإنما عشرة

من القردة .

فجأة لاح لهما بصيص من النُور في نهاية الممر الحجري فأخذا يزيدان السرعة، والصوت يتبعهما: حتى أصبحا أمام فتحة الكهف، وحينما وصلا ونظرا أمامهما، فراعهما المَنْظَر، إذ إن جيشاً من القرود العِملاقة ينتشر حول الجبل فوق هضبة، ولما ظهرا أمامهما أخذ الجيش يُصفِّر ويُصفِّق ويُصدر أصواتاً رهيبة :

قال مؤمن للسلطان :

- سيدي.. لقد ضعنا يا سيدي.. أمامنا قرود وخلفنا قرود.

قال السلطان في خنكة :

- اهدأ يا ولدي.. اهدأ .. لابد أن نتصرف بهدوء .



أخرج مؤمن السيف ولكن السلطان خطفه منه وقال له :

- لا .. ابعد هذا السيف .. نحن اثنين وهم كما ترى .. فلابد أن نستخدم العقل .

ولم يُتِم السُّلْطان هذه العبارة، حتى أصبحا في أحضان اثنان من الغُوريلا العمْلاقة .

حاول مؤمن والسُّلطان برهان أن يتملَّصا من القبضة الشديدة ولكن دون جدوى ، فجأة .. قفزت الغوريلا من فوق الجبل على جذوع الأشجار الممتدة على جانبيه حتى نزلا إلى الساحة بين الجبلين ثم صعدا إلى قمة الجبل الآخر وسط صيحات وصرخات القرود العملاقة .. حتى وصلا إلى قمة الجبل على مقعد من الحجر وكأنه نُحتَ على القمة ووضعا عليه مؤمن والسُّلْطان وأخذوا ينظرون إليهما ملياً دون عِراك .

قال مؤمن :

- سيدي .. ما هذا ؟

قال السلطان :

- لا أعرف يا ولدي .. ليس لنا أَدْنَى حيلة في هذا الموقف العَصِيب ترى لماذا وضعونا في قمة الجبل هكذا ؟.. ووقفوا ينظرون إلينا ؟.. يبدوا أنهم سيقترعون علينا .

قال مؤمن :

- لا أفهم .

قال السلطان :

- أعتقد أنهم يختارون منهم من يفترسنا ..

قال مؤمن :

- يا إلهي .. أيُعقل ذلك ؟

قال السلطان :

- إذن ما قولك في هذا الموقف ؟

قال مؤمن :

- أظن يا سيدي أننا جلسنا الآن في مقعد القائد .

قال السلطان متعجباً :

- القائد ؟!!

قال مؤمن :

- يبدو كذلك .. ألا ترى أنهم يتطلعون إلينا تطلع الشعب لقائده .

قال السلطان :

- نجحت أن تجعلني أضحك في هذا الموقف المُبْكِي ..

ومن بين الصمت الرهيب والعرق البارد الذي يتصبب من مؤمن وصاحبه ورعدة المفاصل، وتوقُّع النّهاية، خرج أكبر القرود سناً، وكان يبدو عليه ذلك من تجاعيد سحنته وقدم ملامحه، ثم صعد إلى منتصف المسافة بين القمة والقاعدة للجبل الذي عليه مؤمن والسُّلْطَان، ثم رفع ذراعيه لأعلى وخفضهما ثلاث مرات، فحدثت جلبة عالية بين القرود، وظن مؤمن أن القرود أخذت الإشارة بالهجوم ، ولكن لم يحدث شيء، بل صعد القرد المسن نحوهما وصمت البَاُقون تماما ، وكاد قلب مؤمن أن يتوقف من الخوف، وعندما أصبح أمامهما أخذ يصنع إشارات بيديه لم يفهماها، ويشير بذراعيه في اتجاه معين ويصدر

أصواتاً عجيبة من صدره :

قال السلطان متسائلاً :

- لماذا يفعل ذلك يا مؤمن ؟

قال مؤمن :

- سيدي.. يبدو أن هذا القرد يريد منا شيئاً معيناً ..

قال السلطان :

- ولكن كيف نفهمه ؟!

وحار القرد في أن يُفهِمَهُما ما يُريد، فوقف صامتاً .. ثم نظر لمؤمن، ومد يده إليه كأنه يدعوه للذهاب معه ، وتردد مؤمن قليلاً ولكن السُّلْطَان برهان قال له:

- مد يدك يا ولدي .. ولنرى ماذا يريد .

مــد مـؤمن يده فـأمــسكهــا القــرد وســار بمؤمن والسلطان وشاهدا جمع القرود يسير وراءهم بعدما هبطوا من الجبل ، وأخذوا يتوغّلون في الغابة :

- إلى أين يأخذنا هذا القرد يا سيدي السُّلْطَان ؟

قال السلطان في يأس :

- لا أعـرف يا مـؤمن . . ولكن لا نملك غـيـر أن نُذْعِن لرغباتهم . . ألا ترى وجوههم المُرْعِبة .

قال مؤمن محاولاً إيجاد حل ينقذهم من هذا الموقف :

- سيدي . . هل نحاول الهرب ؟؟ . .

قال السلطان :

- لا . . إنهم بذلك لا شك سيُمزِّقُونَنا إرباً إرباً . .

وفجأة توقف القرد أمام أرض واسعة ، بل شاسعة

وكأنها مجهَّزة للزراعة فهي مَحْرُوثة ومُقَسَّمة ولكن لا نبات فيها، وأشار القرد لمؤمن أن يتبعه فسار وراءه، فإذا ترعة من ماء صافٍ جميل تسير محاذية للأرض، ولكن لا تَرْوِيها :

قال مؤمن بعد أن التقط أنفاسه وأحسَّ بشيء من الأمان :

- تُرى يا سيدي السلطان .. ماذا علينا أن نفهم من ذلك ؟

قال السلطان :

- لا أدري يا ولدي.. لا أدري.. أرض زراعية وترعة.. ما المُشْكلة ؟

أخذ الصمت يلف الحضور جميعاً ..وكأنَّ القرد

قد عجز تماماً عن تعريف مؤمن بمشكلته، فتركه والسُّلْطَان يقدحان زناد فِكْرِهما، عسى أن يتوصَّلا إلى حل الموضوع الذي لا يعرفان أساسه، وسار السُّلْطَان يمشي في الأرض، ثم مد يده إلى التراب وأخرج منه بذرة فول سوداني وقال لمؤمن :

- مؤمن .. انظر .. هؤلاء القردة .. يريدون أن يزرعوا هذه الأرض بالفول السوداني .

قال مؤمن :

- أيُعْقَل يا سيدي ؟ .. أيعقل أن يفكر القرود في ذلك ؟.. ولكن .. الحقُّ معك أتعرف ما المشكلة التي علينا أن نجد لها حلاً ؟

قال السلطان :

- ما هي ؟.. قل بحق الله ..

- انظر لهذه الترعة .. إن مَنْسُوبها منخفض عن الأرض التي لابد أن يزرعوها بمسافة كبيرة .. ويبدو أنهم فشلوا فشلاً ذريعاً في ابتكار وسيلة لرفع الماء من الترعة إلى الأرض الزراعية حتى يتم ري الزرع.

- يا إلهي .. أعتقد أن تحليلك صحيحاً !!

ولكن .. شئ غريب .. كيف أدرك القرود أن الإنسان هو الذي سيعرف كيف يحل المشكلة ؟

- هذا يا ولدي إيمان منهم بأن الإنسان أرقى منهم فكْراً .

كانت القرود على جمعها الرهيب العظيم تقف

أمام مؤمن والسُّلطان وهما يتناقشان في خشوع وأدب ولهفة ، وهنا ابتسم مؤمن وقال :

- يا إلهي .. نحن الآن يا سيدي أمام شعب يريد أن يُعَمِّر الأرض ويزرعها ، لقد زال الخَوْف عني تماماً ، والآن .. علينا أن نفكر في وسيلة لرفع الماء .

- مؤمن ... أظن من الصعب صنع ساقية يديرها حِمَارٌ هُنا ؟ !

- ومن قال ذلك ؟ .. إنَّه الشَّادُوف يا سيدي ..

وبسرعة جرى مؤمن وأحضر الأغصان وجرى السلطان وأحضر ثمرات عملاقة من ثمار جُوز الهند وبعض الألياف وعلى الترعة استطاعا أن يقيما ثلاثة شواديف ، ثم أخذ مؤمن يصنع نموذجاً من العمل

عليه، ثم استدعى ثلاثة قرود شابة، فقاموا بتقليده بدقة متناهية وبسرعة عالية، فنجحت الفكرة، ولما جرى الماء في الأرض حدثت فرحة غامرة وأخذ القرود يقفزون من السعادة ويرقصون ويحتضنون بعضهم البعض كبني آدم، ونظروا إلى مؤمن والسُّلْطَان ثم جروا نحوهما حتى ظن مؤمن أنهم ينوون بهم شراً، ولكنهم رفعوهما على الأعناق وأخذوا يدورون بهما احتفالا بما صنعاه من أجلهما .

وفي المساء قدموا إليهما طعاماً لذيذاً من فاكهة وأنواع تعفَّف مؤمن وزميله عن أكْلِها، وفي الصَّبَاح وبصعوبة اخذا يشرحان للقرد العجوز ما يريدانه من الخروج، ولكن أحدا من القرود لم يفهم، فتوصل

مؤمن لفكرة جميلة، إذ رسم على الأرض حِصانين، فلمّا رآهما القرد فهم مقصده، فاندفعت جماعة كبيرة من القرود في بَطْن الغابة، وبعد مرور الصباح والليل.. استيقظ مؤمن وصاحبه على القرد المسن وهو يشير إليهما نحو حصانين عملاقين في انتظارهما .

لم يصدقا أنفسهما، ولم يمهل مؤمن السلطان أن يفكر إذ اندفع يقفز فوق حصانه ودعى السلطان فجرى وقفز فوق الحصان الآخر فانطلقا يَشُقَّان طريقاً جديداً نحو السَّلْطَنة، وكان عجباً أن الحصانين وكأنهما يعرفان الوجهة، ويعرفان الطريق الآمن، ومضى يوم بليلة وهما على هذا الحال، بل إنهما من

التعب ناما على ظَهْرَي الحصانين، ولما لسعتهما أشعة الشمس، أفاقا ليجدا أنفسهما على مشارف الخروج من الغابة، فصاح مؤمن فرحاً وقال:

- سيدي السلطان .. مرحى يا سيدي سُلْطَان البلاد.. هاهي السَّلْطَنة تلوح لنا من بعيد .

- الحمد لله .. إذن .. علينا أن نتوقف هنا .. ألا نتقدم أكثر من ذلك .

- لماذا ؟.

- لابد أن خَبر هروبنا من القَلْعة قد وصل إلى عَمِّي نَدْمَان ولابد أنه يَحْتَاط لذلك .

- الحق معك يا سيدي .. ماذا إذن ؟

- نتخلص من الحِصَانين الآن .. ونترجَّل ونراقب



الوضع عن بُعْدٍ بحذرٍ شديد .

وترجَّل السُّلْطَان مع مؤمن وسارا بخفة وبطء نحو السُّلْطَنة .

وفي هذه الأثناء .. كان السلطان ندمان يقترب إلى الجنون من شدة الخوف ، فها هو لا ينام وإذا نام يقوم يصرخ ويفُّر تحت الفراش ، أما جموع الشعب فلقد تأكدوا أن السلطان الحقيقي « بُرْهَان » هارب ، ولابد من عودته للسلطنة ، وفي هذا اليوم نظر النَّاس فإذا كل الجيش على حُدود السَّلْطَنة كما أمرهم السُّلْطَان ، ولم يكُن هناك من الجُنْد غير نفر قليل حول القَصْر ، فأحسَّ النَّاس أنها فرصة للقضاء على السُّلْطَان الظالم «نَدْمَان» ، فأخذ كل واحد يتحصَّن

بالسلاح ويتسلح كل رجل وشاب بما يُتَاح له من عصى أو هراوات أو سكاكين وماشابه ذلك ، واجتمعوا فيما بينهم وقرّروا الهجوم على القصر .

وفي هذه الأثناء كان مؤمن والسلطان برهان قد وصلا إلى بوابة المدينة .

قال مؤمن والحيرة على وجهه :

- سيدي .. إني أرى جنوداً كثيرة يحيطون بسور السَّلْطَنة .

- يا إلهي .. هكذا لا يمكننا الدخول .. إنَّ الجيش يحيط بكل السَّلْطَنة ماذا سنفعل ؟..

وقبل أن ينطق مؤمن وجدا الجُنْد حولهُما وتم القَبْض عليهما في الحال إذ إن إجراءات الأمن كانت

شديدة .

وسيق السُّلْطَان ورفيقه الصغير إلى مكتب القائد على بوابة السَّلْطَنة .

وفي مكتب القائد صاح السلطان بالحضور :

- عليكم أن تطلقوا سراحي فوراً .. أنا السُّلْطَان برهان .

ولم يدر القائد ماذا يفعل عندما رفع السلطان برهان سترته وأراه خاتم السلطنة والذي لا يحمله على جلده إلا من كان من الأُسْرَة الحَاكِمة، وقبل أن يدور الحِوارُ وصلت إلى المَسَامِع هتافات الشَّعْب وثورته.

واندفع الجيش داخل السُّلْطَنة ليجد الناس قد اقتحموا القصر وقبضوا على السُّلْطَان «نَدْمَان» رهينة

فتوقَّف الجند لا يملكون شيئاً، فاندفع السلطان برهان ووقف على ربوة عالية في الناس :

- أيُّها النَّاس .. أيُّها النَّاس .. اسْمَعُوني .. أنا السُلْطَان « بُرْهَان » .. أنا ولِّي العَهد .

وفي الحال شقت الصفوف امرأة عجوز وساعدها الشباب في الوصول إلى ربوة «بُرْهَان» .. لقد كانت هي المرأة التي أرَضْعَته وهو صغير .. فلما دَنَت منه قالت :

- الأمير .. إنَّه الأمير «برهان» .. أنا أعْرِفه .. بل إن أنفي شمَّت رائِحَتُه .. قلبي يشعر به .. إنَّه الأمير برهان ..

وعلى الفور حملت جموع الشُبَاب السُّلْطَان برهان على الأعناق ورفعوه على العرش فأشار لهم

باستدعاء الغُلام مؤمن وأدناه منه ثم قال في الناس :

- أيها الناس لهذا الغلام المُسْلِم الفضل في عَوْدَتي إليكم . .فلولاه لما اسْتَطَعْت أن أحَطِّم سجن المُسْتَحيل في القلعة الملعونة . . لقد منحني الأمل. . وعلى صغر سنه أعطاني درساً في كيفية حسن الظن بالله، وعلمني أنه لا شيء يسمى مستحيلاً مادام لنا عقل يُفَكِّر وقلب ينبض وذراعٌ يَتَحَرَّك .

وأصدر السلطان برهان قراراً بإعدام عمه«ندمان» على ما كان من جرائمه في حق الشعب والسُّلْطَان . . وتمَّ حُكْم الإعدام في ميدان عام . . وعاد للبلاد الرخاء والبَهْجَة ، واغتبط الشعب بعودة السُّلْطَان «بُرْهَان»، وأقيمت الاحتفالات وعُلِّقت الزينات، ولما قرر مؤمن

أن يرحل بعد أن انتهت مغامرته الشيقة «سجن المستحيل» أنعم عليه السُّلْطَان «بُرْهَان»، بجوهرة جميلة نادرة .. جزاء شجاعته وحكمته ومعاونته له في محنته .

تمت بحمد الله تعالي .

سلسلة مغامرات عجيبة جداً